باب المقالات

قوة الاجتماع والتعاون (*

الاجتماع والتعاون قوة لا تغلب الا بقوة مثلها ، قوة بها ترتقي امم وتغتني ، وبها يسود قوم على قوم ، وبها تنمي الثروة ، وبها يتغير شكل الحكومة والدولة ، وبها كان كل شيء ويكون كل شيء

عشرة مجتمعون متعاونون ، يغلبون المئين والالوف من المتفرقين المتخاذلين ، اذا ألفوا شركة مالية قطعت اسباب الكسب على اضعاف أضعافهم في العدد من التجار ، واذا كونوا عصبة للبغي والعدوان سلبوا راحة الالوف من الناس ، واذا قاموا بالاعمال الاجتماعية احدثوا تغييرا عظيما في العمران ، واذا نشروا العلوم والفنون افادوا مالا يفيده الكثيرون من العلماء الاعلام

لماذا كانت الحكومة الاستبدادية القليل افرادها أقوى من الامة الكثير عددها؟ أليس لأن الحكومة جماعة متعاونة ، والامة أفراد متفرقة ؟ ولماذا كانت الامة الدستورية أقوى من حكومتها ؟ أليس لاجتماعها على رأي واحد في شكل الحكومة وكيفية سيرها ؟ فالى متى يظل المنحطون من الامم والشعوب غافلين عن هذه الحقيقة جاهلين طريق هذه القوة — قوة الاجتماع والتعاون — التي بها يرتفع شأنهم ، ويعلو قدرهم ، ويساوون تلك الامم التي ينظرون اليها كما ينظر أهل الارض الى الكواكب اللامعة في جو السماء ، ويحسدونها على ما أوتيته من السناء والبهاء ،

(*) نشرنا هذه المقالة وما يليها بجريدة الحضارة التي تصدر بالاستانة

وهذه أخبار التاريخ الماضية ، وحوادث الاجيال الحاضرة ، تعلمهم ان الاجتماع مع التعاون هو القوة التي تذهب بشقائهم ، وتشفيهم من أدوائهم ، وتحقق لهم أمانيهم التي يتمنون ، وتعبر لهم الرؤى الصالحة التي يرون ،

لو أردت ان أبين فوائد الاجتماع والتعاون بطرق الخطابة أو الشعر لاحتجت الى انشاء المجلدين ، ولو أردت ان اجمع الشواهد والوقائع في فضلها لصنفت الاسفار الكبيرة في التواريخ ، ولكني لا أريد هذا ولا ذاك ، إن أريد الا تذكير القارئين بمسألة صارت من الضروريات ، لا يحتاج فيها الى نظم الادلة وترتيب المقدمات ، أريد ان أذكرهم ليعملوا ، لا ليعلموا ما لم يكونوا يعلمون ، ولا لأجل ان يقعدوا عند الفراغ بما يقرؤن ، أريد ان أقول لهم ياقوم انكم ضعفاء في العلم وانتم أذكى الناس أو من أذكاهم ، وانكم فقراء وانتم اقدر البشر على الكسب أو من أقدرهم ، وانكم مهضومون مستضعفون ، لغير ذنب تجنون ، الا تفرقكم وتخاذلكم . انه لا ينقصكم الا الاجتماع والتعاون فاجتمعوا وتعاونوا ، ولا يفرقن بينكم اختلاف ديني ولا جنسي مع العلم بأن الحاجة أو الضرورة تقضي باجتماعكم على ما به قوام مصلحتكم المشتركة

لا أدعوكم الى اجتماع سياسي أو خيالي ، ولا الى تعاون مطلق أو اجمالي ، بل أدعوكم الى الاجتماع لازالة موانع الاجتماع ، ثم للتعاون على ترقية شأن الاجتماع بالعلم والثروة ، واعلاء شأن الامة والدولة ، بأن تكونوا أصحاب القدح المعلى الذي يؤهلكم له ذكاؤكم الفطري وأخلاقكم الموروثة التي ينوه بها التاريخ ، اذ يفاخر بأجدادكم جميع الامم والشعوب :

ياقوم ان لكم من مجد اولكم ارثا قد اشفقت ان يفنى ويقتطعا
ياقوم بيضتكم لا تفجعن بها اني أخاف عليها الازلم الجذعا

ان الدولة لا ترقى ولا تعتز الا بالامة وان الامة بأخلاقها وعلومها وثروتها ، وان الوراثة اكبر عون للمرء على التربية والعلم والعمل ، فتعاونوا على نشر التعليم والتربية ، تعاونوا على ترقية الزراعة والصناعة والتجارة ، قد آن لكم أن تخرجوا من مأزق الاعمال الفردية الى فضاء الاعمال الاجتماعية ، فلو صار كل واحد منكم أغنى من قارون ، وأعلم بالحكمة من لقمان ، واخطب في العلوم الالهية والحكمة الادبية من علي

ابن ابي طالب ، وأعدل من عمر بن الخطاب ، وأدهى في السياسة العصرية من بسمرك ، وانشط من غليوم ، لما اعترف لكم أحد بحق ، ولا مكنكم أحد من الاصلاح في الارض ، الا بعد ان تجتمعوا وتتعاونوا

يجب ان تؤلفوا الشركات المالية ولا تقسوا بها المعنى الاجتماعي الادبي ، لاتقسوا انكم اذا خلطتم أموالكم بعضها ببعض تختلط أرواحكم بعضها ببعض فيزول سوء تأثير الاختلاف الطبيعي بينكم سواء كان اختلافا في الدين والمذهب ، أو الجنس والمشرب

يجب ان تؤلفوا الجمعيات العلمية والخيرية لتعميم التربية والتعليم بين جميع الطبقات ليكون افراد الامة كسلسلة اذا تحركت حلقة منها تحركت سائر الحلقات

يجب ان تطالبوا الاغنياء ببذل الاعانات العظيمة لنشر العلم وانشاء المدارس فمن بخل على الامة بفضل ماله فعليكم ان تبينوا للامة أنه عدوها وانه يجب عليها ان تمقته وتحتقره ، وأما من يجود عليها بما يرفع شأنها فعلموها كيف تعظم شأنه وترفع قدره ، استعينوا على هذا بالكتاب والشعراء ، فهم الذين يربون لكم الاغنياء ،

يا أصحاب الاقلام : ان في أيديكم قوة تعمل ما لا تعمل السيوف والمدافع ، ان من تعظمونه بالحق يكون قدوة وامثلا في الخير لاهل عصره ، ولمن يأتي من بعده ، وان من تحقرونه ولو بالباطل يكون محتقرا في زمانه ومحتقرا في التاريخ حتى تستحي ذريته ان تنتسب اليه فاعرفوا قيمة انفسكم كما عرفها بشار اذ قال :

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم　　اني أخاف عليكم أن أغضبا
أبني حنيفة اني ان أغضبكم　　أدع اليمامة لا تساوي أرنبا

اعرفوا قيمة هذه السلطة المعنوية التي لا تظهر قوتها على كمالها الا في الجرائد واستعملوها في اصلاح حال الامة فبذلك يعلو قدركم ، ويرتفع ذكركم ، وتنالون من الناس احسن الشكر ، ومن الله تعالى اكبر الاجر ،

وأنتم يا أصحاب الجرائد أولى أصحاب الاقلام بهذا العمل لان صحفكم تجعل لكلامكم من التأثير ما ليس لكلام غيركم الذي لا تقبلون نشره فيها فرضوا

الكتاب والشعراء على هذا الاصلاح ونوهوا بفضل من يساعدكم عليه ولا تبالوا بمن عداه بل أدبوه كما تؤدبون بخلاء الاغنياء

يا أصحاب الجرائد: لا تفتنكم سياسة الحكومة فتجعلوا عنايتكم محصورة في أعمالها وأقوالها، اجعلوا جل عنايتكم في اصلاح حال الامة فان تصلح دولة أمتها جاهلة متخاذلة، فباصلاح الامة يتم لكم ما تريدون من اصلاح الحكومة فهي كل شيء ويجب ان يكون لأجلها كل شيء

* * *

كيف تنال الأمة حقوقها؟

ان للأمم حقوقا طبيعية وشرعية، وان حقوقها كحقوق الافراد تغصب منها وتغلب عليها، وان الغاصب لها قد يكون واحدا منها أو واحدا من غيرها وقد يكون جماعة منها أو من غيرها، واعني بالفرد الذي يغصب حق الامة الحاكم المستبد المطلق، الذي يرجع اليه الأمر كله في سياستها، ان شاء عدل، وان شاء ظلم، وان شاء أشرك غيره بالحكم، وان شاء انفرد، وأعني بالجماعة الحكومة المقيدة كيفما كان شكلها ونوعها،

اذا ظلم الافراد وغصبت حقوقهم يختصمون الى الحكام فاما ان ينصفوهم واما ان لا ينصفوهم، واما الامم فليس لها محاكم تختصم اليها، لان حكامها هم الذين يغصبون حقوقها، وماذا تفعل وخصمها هو الحكم، وكيف تتنصف منه اذا جار وظلم؟ ومتى تسترد حقوقها منه اذا اعتز وغلب؟

لا تنال حقوق الامم بنظم الأقيسة وترتيب المقدمات، واقامة الحجج وايراد البينات، ولا بالرجاء والتذلل، ولا بالبكاء والعويل، لان الغاصب لا يكون فاضلا عادلا فيقنعه البرهان، ولا رؤفا رحيما فيؤتى من ناحية الوجدان، وانما يكون فظا غليظ القلب، لا يخضع الا للقوة والبأس، فيعطي بالقوة كما يأخذ بالقوة،

كيف تصير الامة المغلوبة على أمرها ذات قوة تسترد بها حقها، اذا كان الحاكم واقفا لها بالمرصاد، مانعا لها بقوته من ايجاد قوة لها؟ اتقول ان اليأس

من قوة أمة هذه حالها اقوى من الرجاء فيها ، أم قول يجب أن تثور على حكومتها ثورة تشيب النواصي ، وتزلزل الرواسي ، وتجعل الرفيع وضيعا ، والذليل عزيزا ؟ أم هنالك حيلة اخرى يكتفى منها بالقوة المعنوية ، عن القوة المادية ؟

هذه المباني قد انتقلت من أوربا الى الشرق ، وكثر الحديث بها في هذا العصر ، ولاسيما بعد الانقلاب العثماني والانقلاب الفارسي ، وربما تكون قد جالت في ادمغة زعماء الارنؤط الذين أوقدوا نار الفتنة في هذه الايام ، وكانوا عونا على الدولة وعلى انفسهم ، لاولئك الاعداء الذين أجمعوا كيدهم على اسقاط هذه الدولة بل على محوها واقتسام تراثها بدون حرب طحون تسفك فيها دماؤهم ، وتتلف بها اموالهم ، فهم انما يخاربونها حربا معنوية ، يغرون عناصر أمتها بالعداوة والبغضاء ، ويضربون بعض أعضائها ببعض حتى تقضي على نفسها قضاء وشبكا أو بطيئا ،

يقول لسان حال هؤلاء الساسة أو لسان مقالهم للترك انكم انتم الفاتحون وأصحاب السيادة القادرون ، ولا حياة لكم ولا شرف ، بل لا بقاء لكم ولا وجود الا بتعصبكم لجنسكم ، وجعل زمام الامة في أيديكم ، فان هذه المزية اذا فاتتكم تكونون وراء سائر العناصر المنسوبة الى دولتكم ، لانهم أقدر منكم على الكسب ، ولا تقدرون أن تسبقوهم بالعلم ، فاعتمدوا على هذه الكتائب قبل الكتب ، فهي التي تحفظ لكم السيادة على العجم والعرب ،

ويقولون للعرب انكم العنصر الاكبر في هذه الدولة ، ولكم الحق الاول في السلطة والخلافة ، وبلادكم قلب الارض ، وموطن الدين ومهبط الوحي ، ولغتكم لغة القرآن الذي يدين به فيتعبد بها ثلاث مئة مليون من الناس ، ولكم من السلف في المدنية والعلم ، ما يدل على ان استعدادكم اعلى من استعداد الترك ، بل ومن غير الترك من شعوب الارض ، وهم قد خربوا بلادكم بعد عمرانها ، وحالوا بينكم وبين الاستفادة من كفاءتكم ومزاياها ، وقد آن أوان طلب الحقوق ، والمؤاخذة على العقوق

ويقولون للارنؤط انكم شعب مجيد ، وانكم أولو قوة وأولو بأس شديد ، وانكم أقوى من الترك استعدادا للمدنية ، لانكم من الشعوب الاوربية ، وبلادكم

قابلة لذلك اذا هي استقلت بالحكم ، وألقت عن كاهلها اثقال سلطة الترك ، فدونوا لتعلم بالحروف اللاتينية ، ولتتحد البلاد الشمالية بالجنوبية ، وستنالون كل أمنية ، بمساعدة أوربا عاشقة الانسانية ، ! ! !

ويقولون للارمن انكم اذكى العثمانيين أذهانا ، وأطلقهم لسانا ، وأجرأهم جنانا ، واقدرهم على الكسب والاعمال ، واسبقهم الى الاتحاد على طلب الاستقلال ، وقد جمعتم لذلك ماجمعتم من المال ، وركبتم في عصر نيرون الترك ما ركبتم من الاهوال ، حتى اقتحمتم العقاب ، وذللتم الصعاب ، فلا تهنوا ولا تنوا في الامر ، ولا يصدنكم ماتنالون من الدولة عن طلب الملك ، وان أوربا المسيحية ، لزعيمة لكم بتحقيق هذه الامنية ، فخذوا الاهبة وانتظروا الفرصة ، وأعدوا لها الشعب كله ، بتعليم المدارس ، ووعظ الكنائس ، ووضع صور ملوككم ، وصور قتلى وأرامل المقتولين منكم ، في بيوت عامتكم وخاصتكم ، مع تحريك الاشجان ، واثارة الاضغان ، بالأناشيد والالحان ،

ذلك مايوسوس به شيطان السياسة الجنسية ، في اغراء الشعوب العثمانية ، وما هو الا كيد وخداع ، جدير بالعصيان لا بالاتباع ، وأما ملك الالهام ، الداعي الى الوفاق والسلام ، فانه يصيح بهؤلاء الاقوام : لا تستعجلوا العمى على الهدى ، واستجيبوا لداعي العقل دون داعي الهوى ، واعلموا ان تفرقكم وانقسامكم ، وعداءكم وخصامكم ، والجاء الدولة الى تفريق قوتها في بلادكم ، لمقاومة فتكم وثوراتكم ، هو الذي يحول دون ارتقائها وارتقائكم ، ويفضي والعياذ بالله الى هلاكها وهلاكم ، وارث الدول الاوربية لارضكم وديارکم ، ووالله انكم لتكونن حينئذ أبعد عن الاستقلال ، واقرب الى الخزي والنكال ، انكم تملكون اليوم في حجر هذه الدولة جميع اسباب الارتقاء ، ولا تملكون غدا في حجور اوربا الا اسباب الذلي والاستذاء ،

لا مرحبا بغد ولا أهلا به ان كان (تفريق العناصر) فيه

لا أقول ان الدولة نفسها ترقيكم ، بل اقول انه لا يرجى ان ترقيكم ، لا لانها لاتريد ، بل لانها ان ارادت لاتقدر ، وانما يجب عليكم ان ترقوا انفسكم ، وترقوها بترقيتكم ، فقد صار أمرها في أيديكم ، نعم ان العنصر التركي هو الذي يدبر اليوم

أمر الحكومة ، لأن له الكثرة في مجلس الامة ، وان منكم من يسيء الظن به ، ويعده غاصبا لحق غيره وما نما له من الوصول الى مطلبه ، وان هؤلاء ليكبرون الصغير ، ويغفلون عن الامر العظيم ،

الخطب سهل والأمر طيب ولا ضرر في كون الغلبة في الحكومة لعنصر يرجح قومه على غيره في الاعمال ، وانما الضرر ان يكون أمر الحكومة في ايدي العاجزين عن الاصلاح ، وان القادرين عليه من جميع العثمانيين قليلون ، وانما الآن في دور تجربة فدعهم يجربون ، ولا يجوز لنا ان نتمادى في سوء الظن ، ولا ان نؤاخذهم على كل ذنب ، فنجعل ما يقترفه الشخص ذنبا للعنصر والشعب ، بل يجب على العقلاء المخلصين للاصلاح العناية بامرين احدهما يتعلق باصلاح الحكومة والآخر يتعلق باصلاح الامة

اما اصلاح الحكومة فله طريقان لابد من الجمع بينهما ، أحدهما حسن اختيار المبعوثين ، وأعضاء المجالس العمومية ، وثانيهما مراقبة العقلاء واصحاب الجرائد للحكام والعمال في النظارات عامة ، ونظارة المعارف خاصة ، والانتقاد على الظالمين والمفسدين منهم ، والسعي في ازالة الظلم ولا يتم شيء من ذلك الا بالاجتماع والتعاون

وأما اصلاح الامة فله طريقان ايضا لابد من الجمع بينهما ، احدهما نشر التعليم الاهلي مع التربية الصالحة ، وثانيهما الاعمال المالية التي تنمي ثروة البلاد ، ولا يتم شيء منهما الا بالاجتماع والتعاون ،

قد اشرت في مقالة (الاجتماع والتعاون) الى شيء مما يتعلق بالتربية والتعليم والاستعانة على ذلك بالاغنياء ، وانما قصدت بذلك تنبيه الاذهان ، وتوجيه الهمم وتحريك الاقلام ، دون التفصيل والاستقصاء ، وعسى أن أبين في مقال او مقالات أخر كيفية الاجتماع والتعاون على كل من اصلاح الحكومة واصلاح الامة بشيء من التفصيل ، وأحوج العثمانيين الى ذلك العرب والترك والكرد والارنؤط ، وأما الارمن والروم والبلغار واليهود فلهم اعمال من دون ذلك هم لها عاملون ، وطرق معبدة هم فيها يهرعون ، فلا يحتاجون الى رأينا ، ولا الى معرفة طرق تعليمنا وسعينا ، بل نحن المحتاجون الى معرفة سعيهم ، وطرق تربيتهم وتعليمهم

ان الاجتماع والتعاون على ذينك الاصلاحين هو الامر العظيم الذي غفل عنه الذين يتحدثون ويكتبون في مسألة حقوق العناصر ، هو القوة المعنوية التي تقي عن الثورة ، وتنال الامة به من حقوقها ما لا ينال بالسيف والمدفع ، مع امن الخطر على الدولة ، التي يجب الاتفاق على حفظ كيانها ، وتعزيزها ورفعة شأنها ، قبل كل سعي ، ومع كل سعي ، وبعد كل سعي ،

يسمع في البلاد العربية قليل من الكلام ، ويوجد في بلاد الارنؤط كثير من السلاح ، وكذلك في صحاري الجزيرة والعراق ، ولا تصلح البلاد بهذا ولا ذاك ، على ان السلاح هنا وهناك لم يقتن للاستعانة به على الاصلاح ، وانما اقتني ليكافح ويدافع به الناس بعضهم بعضا وقد يعاونه في وجه الحكومة اذا أحسوا بالظلم ، وكانت الحكومة ولا تزال بشؤم الماضي عاجزة عن تأمين تلك البلاد وحماية الأعزل فيها من عدوان شاكي السلاح ، وأما البلاد التي يشكى فيها من الحكومة ويطالب بعض العناصر فيها بحقوقه فهي أشد البلاد اخلاصا للدولة ، وأبعدها عن الخروج والفتنة ، اما العرب فقد خرج صوتهم من عاصمة الملك ، وردد صداه سورية ومصر ، وهل يوجد أحد أعرف من العاصمة وسورية ومصر بقيمة الدولة والغيرة عليها والحرص على عزتها ورفعة شأنها ؟ كلا وانما ذكرت هذه الجملة استدراكا على كل ما تقدم ، لأبين ان الباحثين في حقوق العرب اكثرهم في هذه البلاد ، وانهم اعرق العثمانيين في الغيرة والاخلاص ، على ما كان من سوء التفاهم بينهم وبين القابضين على ازمة الأمور كما بينا ذلك بالتفصيل في مقالاتنا «العرب والترك» بحسب ما ادانا اليه اجتهادنا الى ذلك الوقت ،

نحن نعتقد ان الاسلام قد حرم العصبية الجنسية ، وجعل المسلمين أخوة على اختلاف أجناسهم وعناصرهم ، وكنا نعتقد ان أشد التعصبات الجنسية ضررا على المسلمين في هذا العصر تعصب العرب والترك للعربية والتركية ولذلك سعينا هنا (في الآستانة) بجهدطاقتنا بالقول والكتابة لسد هذه الثغرة التي فتحتها السياسة ،

وقد قلت ولا أزال أقول إن الاسلام قد أبعد العرب عن الغيرة الجنسية حتى صاروا أبعد الامم عنها ، وانه لا يقدر أحد على اعادتها اليهم أو اعادتهم اليها ،

الهم الا من يتحاملون عليهم من الترك فهم وحدهم القادرون على هذا الامر ، وقد عجزعنه الافرنج اذ حاولوه من قبل ،

ان سيرة ساسة الترك ومتولي أزمّة امورهم وكتاب اشهر جرائدهم هي سيرة من يريد تحريك الجنسية العربية لا مفر من ذلك الا بادعاء كونهم لا يعلمون ماذا يعملون ، فاذا تحقق هذا فان نهي مثلي عن نهوض العرب باسم العرب ماعاد له فائدة . فما علي اذًا الا أن أذكرهم في جنسيتهم بأمرين لا مندوحة عنهما . ولا يمكن ان يحل محل العرب سواهم فيهما . أحدهما جعل أساس نهضتهم تعزيز الدولة العلية ، وثانيهما ان يكونوا حلقة التعارف والاتصال بين جميع الشعوب الاسلامية ، فالامر الاول يجب على المسلم وغير المسلم منهم لانهم العنصر الاكبر لهذه الدولة ، والامر الثاني يجب على مسلميهم خاصة لانهم أولى بالارشاد الاسلامي وأقدر عليه من غيرهم ، وهم بهاتين الوظيفتين المقدستين لا يقاسون على أمة ولا على شعب ولا يقاس عليهم غيرهم ، فحقوقهم اعظم ، والواجبات عليهم اثقل ، وامامهم الصراط المستقيم ، فليلجوه إن كانوا قاطنين ، والله الموفق والمعين .

* * *

النهضة المصرية والدستور

مصر بلاد ممتازة في ادارتها الداخلية ، تابعة للدولة العلية العثمانية ، فكل مصري عثماني ، وما كل عثماني مصريا ، فبينهما العموم والخصوص المطلق كالمهندس والمعلم مثلا ، فكل مهندس معلم ، وما كل معلم مهندسا

مرّ على العثمانيين والمصريين زهاء ثلث قرن وهما على طرفي نقيض ، أو حرفي تباين ، إذ هؤلاء يرسفون في قيود العبودية ، وأولئك يرفلون في حلل الحرية ، ثم تحول شكل الحكومة العثمانية فجأة فطفرت من هاوية الاستبداد المطلق ، الى فتة الحكم النيابي المقيد ، فأحدث هذا الطفور شيئا من رد الفعل فقامت الحكومة العرفية تحوط وتحمي حمى الحكومة الدستورية ، فلولا الجند العثماني لما ذكر الدستور جهرا

في هذه البلاد ، ولولا الجيش لما طمع احد في استقرار الدستور فيها ،

وأما مصر فكانت تنطق اذ كانت البلاد العثمانية صامتة واجمة ، وكان العثماني الحر لا يستطيع ان يتكلم في بلده ، فالمصريون قد طلبوا الدستور بصوت اندى من صوت العثمانيين واصرح ، هم طلبوه جهرا اذ كنا نطلبه سرا ، ولكن لم يكن لهم جيش كجيشنا يلبي نداءهم ويجيب دعاءهم ، ولم تكن بلادنا كبلادهم محتلة بجيش اجنبي ، ولا حكومتنا كحكومتهم محاطة بنفوذ دولة اجنبية قوية ، فوجب ان يكون طلبهم بالحجة ، وتربية الاحساس وجمع الكلمة ، فكل من الفريقين قد سعى الى مطلبه في محيط الامكان ، ولم يطمع في تجاوزه الى المحال ،

قويت حجة المصريين بعد اعلان الحكومة الدستورية في بلاد الدولة العلية التي هي أهم وهم اقدر أولاد هذه الام على رفع بلادهم ، وترقيتها بجدهم واجتهادهم وقد انتشر فيهم التعليم ونمي في نفوسهم شعور القومية ، واتسعت دائرة التكافل والتعاون على المصالح العامة ، فأنشأوا بأموالهم ألوفا من المكاتيب الابتدائية ، وأنشأوا مدرسة الجامعة المصرية ، وعندهم عدة جمعيات خيرية وعلمية ، وكثر قراء الجرائد والمجلات فيهم ، وبلادهم متصل بعضها ببعض بالسكك الحديدية فلا يحدث في زاوية من زواياها حادثة ذات بال الا ويطوف خبرها جميع ارجائها في يوم أو يومين ، فأنى للبلاد العثمانية ان تشاركها بهذه المزايا كلها ؟ فمن انكر على المصريين استحقاق الحكم النيابي الذي يتمتع به العثمانيون زاعما ان استعدادهم دون استعداد اخوتهم له فهو اما جاهل مليم ، واما ظالم مبين

أنا أشهد ان مصر قد صارت أقوى استعدادا للحكم النيابي بفضل النابغين من أبنائها وأبناء اختها سورية الذين جذبتهم اليها جامعات اللغة والجوار والعادات وبما استفادته من مشاركة أبناء الشعوب الاوربية ، وبما ساقه اليها الاحتلال الانكليزي من ضروب العبر في سيطرته على حكومتها ، وتصرفه في ادارتها وماليتها ، وبما فتحه استقلال السلطة الاجنبية في نفوس أهلها من حب الخلاص مع بقاء سيادة الدولة العلية عليها ودوام ارتباطها بها في السياسة الخارجية

* *

مع هذا كله أقول ان مصر لا تزال مقصرة في أمر عظيم هو الركن الاعظم والبرهان القاطع لشبهات الاحتلال ولو اهتمت أحزابها وجرائدها به كالاهتمام بالسياسة لكانت أقرب الى النجاح والفلاح . ألا ان هذا الامر العظيم هو مايدل عليه بالايجاز لفظ (الاقتصاد) وبيانه بالتفصيل والإطناب ، تدخل فصوله في كثير من الابواب ، وما من باب منها الا وقد دخله كثير من المصريين ، فالافراد منهم يعرفون جميع الجزئيات ، ولكن الاحزاب والجماعات لم تهتم بما يجب من الكليات

نريد من الاقتصاد ان تكون رقبة البلاد لاهلها خالصة لهم من دون الاجانب وأن يكونوا أحرارا في تصرفهم بها ، نريد ان يقف سريان امتلاك الاجانب للارض عند الحد الذي وصل اليه ، وان نفض عن الوطنيين اصرهم واغلال الديون التي ظلوا بها أيديهم الى أعناقهم ، وقيودها التي قيدوا بها أرجلهم ، ثم نريد ان تكون ثروة البلاد قوة في ايدي أبنائها يوادّون بها من شاءوا من الامم ويعادُون بها من شاؤا فيعاونون بها مالا يعمل السيف ولا القلم فتكون هي العون والنصير لهم في مقاصدهم السياسية والاجتماعية

المال هو القطب الذي تدور حوله أفلاك السياسة في جو هذه المدنية فلولا لما زحف اهل الشمال على أهل الجنوب في الشرق والغرب واستولوا على بلادهم باسم الفتح والاستعمار ، أو النفوذ والاحتلال ، وان اصحاب الاموال في اوربا هم الذين يتصرفون في سياستها كما يشاءون ، وبيدهم ميزان الحرب والسلم فهم الذين يزنون ويرجحون ،

ما كان لأهل الشمال أن يكونوا أقوى من أهل الجنوب استعدادا للاعمال المالية، إن زعامة المال فيهم ليست إلا بايدي رجال منا، انها كمايطير الخيرون في أيدي اليهود وهم منا (نحن الشرقيين) نسبا وموطنا وانما ظهرت براعتهم في اوربا باستقرار العدل والحرية فيها ، ويلي اليهود في الاستعداد سائر اخوانهم السوريين والفلسطينيين ، وان سورية ومصر لأختان شقيقتان ، وقد تمازج أبناؤهما منذ القرن الماضي فكانا كمزاج الماء بالراح ، فاستفاد كل من الآخر ولولا أن قام بعض الكتاب بما قام به من

سياسة التحليل ، واضافة ذنوب الافراد الى الشعب والقبيل ، لكان الاتحاد أقوى والاستفادة منه أتم

كل سوري بل كل عربي يحب مصر ويقيم فيها يحسبها وطنه ويرى أهلها قومه واخوته ، لسانهم لسانه ، وعاداتهم عاداته ، ومحاكمهم محاكمه ، فاذا اثرى فيها كان هو التابع لثروته ، ولم تكن ثروته هي التابعة له الى بلاده ، تجذبه مصر اليها فيكون عضوا من أعضائها ، أو مادة من مواد غذائها ، ولا يجذب هو شيئا من ثروتها الى بلاده لتكون غذاء لها ، فالتالي من السوريين أو العرب بعد حياة مصر المادية بكده وكدحه ، كما يعد العالم والاديب منهم حياتها المعنوية بلسانه وقلمه ؛ فينبغي للمصريين ان يحكموا روابط الاتحاد بينهم وبين من يتصل بهم من اخوانهم المشاركين لهم في جميع مصالحهم ومنافعهم ويستعين بعضهم ببعض على ما تجب العناية به من النهضة الاقتصادية

ان حوادث الزمان قد أعدت النفوس لاحكام هذا الاتحاد وتوثيق روابطه فاستعدت له وقد ترجم عن هذا الاستعداد مدير « الجريدة » في السنة الماضية بمقالة له اقترح فيها اخراجه من حيز القوة الى حيز الفعل ، وان وراء ذلك قوة أخرى لمصر هي غافلة عنها ، وما رأيت أحدا نبه اليها وهي زعامة ارقاء الامة العربية بأسرها ، ولا سيما الولايات الشمالية منها ، فقد دبت الحياة الى هذه الولايات بفضل الدستور وتوجهت وجوه العقلاء الى احياء اللغة العربية بالقول والكتابة والعلوم والفنون ، وان عاصمة دار السلطنة هي التي تحفز همتهم الى ذلك ، وان سورية لمبسوطة الذراعين لعناق مصر وناشرة الشقتين لتقبيلها

فالذي أقترحه على مصر الآن هو أن تبادر الى تأليف جمعية أو لجنة اقتصادية أعضاؤها من جميع الاحزاب والعناصر الخاضعة للقوانين المصرية ومن أصحاب الجرائد لاجل القيام بما أشرنا اليه آنفا ، ويجب ان يكون أول عملها احصاء ديون الاهالي والنظر في الطرق الشرعية لوفائها وتحويل مدها الى جزر لا تفيض بعده ثانية ، ثم النظر في مسائل المضاربات والشركات وتلافي ضررها العظيم ، ولا أحاول الاحاطة ببيان كل ما يجب ان تفعله لمنع احتيال الاجانب لثروة البلاد ولتنمية هذه الثروة

وتثيرها ، بل لا يستطيع ذلك مثلي ، فانما أنا مذكر بالامور الكلية التي أرى البلاد قد استعدت لها أو يجب ان تستعد لها ، وان وراء ما ذكرته من المبادئ غايات لا تحصى فوائدها ،

اني قد ذكرت اخواني المصريين بمثل هذا غير مرة ، ذكرتهم به منذ ثلاث عشرة سنة أول مقدمي الى مصر في خطب خطبتها ومقالات كتبتها في المنار والمؤيد ، ثم أعدت التذكير بذلك في « الجريدة » أول العهد بصدورها وها أنا ذا أعيد التذكير « فذكر ان نفعت الذكرى ، سيذكر من يخشى »

اذا كانت السياسة قد شغلت قلوبهم وأفكارهم ، وملكت عليهم ألسنتهم وأقلامهم ، فهم يظنون ان هذا العمل لا يعارض سياستهم بل يدعمها ويعززها ، فاذا لم يكن الآن وسيلة عاجلة للحكم النيابي فربما يكون غدا أرجى الوسائل وأقربها ، فان قالت البلاد ما تطلبه من هذا الحكم بالوسائل التي يراها الاحزاب أقرب فليس بضارهم ان يجمعوا بين حكم أنفسهم وبين حفظ ثروتهم من اغتيال الاجانب ، وقد يضرهم ان لا يكونوا جامعين لها ، فانا نرى الحكومة العثمانية قد صارت دستورية مقاومة الايدي دون ما تبتغي من الاصلاح لقلة المال ، وقد كان دينها قبل الدستور قريبا من دين الحكومة المصرية ولكن الامة العثمانية على فقرها وتأخر عمرانها ليست عديمة للاجانب كالامة المصرية على سعة ثروتها وعمران بلادها ،

لا بد لكل من يتصدى لامر عظيم أن يرجو الفوز ويخاف الخذلان وان يعد لكل امر عدته ، وحجة المصري على وجوب حكمه لبلاده لا تزال ناهضة ما دامت رقبة البلاد في يده لا حقوق فيها للاجانب ، والآن قد صار زمامها خسها ملكا للاجانب أفلا يخشى ان يطغى هذا السيل الآتي حتى يغمر نصف أطيان القطر أو أكثر من النصف في زمن قريب اذا لم تقم في طريقه السدود التي تصد طغيانه ؟ ألا يخشى ان يتحد يومئذ أصحاب الاطيان من الاجانب وأصحاب الديون على الفلاح الوطني كما هي عادتهم ويقولوا ان هذه البلاد ليست لكم وحدكم أيها المصريون فيصح قولكم نحن أولى بحكمها وانما هي لنا ولكم ، ونحن أقدر على الحكم منكم ، أو يجب أن يكون مشتركا

بيننا وبينكم كما قال لورد كرومر ؛ يومئذ لا تنفع الحجج ولا تفيد المظاهرات ولا يغني الاعتصاب شيئا الا غناءً قد يكون اثمه اكبر من نفعه

قد رأيتم العبرة في العسرة المالية التي صدمت البلاد في هذه السنين الاخيرة، ورأيتم كيف أصبح أصحاب الاراضي الواسعة أحير من الضب ، واعجز من أمير الحرب ، هذا ولم يكن أصحاب الاموال في أوربا متحدين على تعمد حربكم حربا اقتصادية ، وهل يعجز دهاة السياسة الانكليزية أن يحملوهم على هذا الاتحاد في يوم من الايام ؟

لكل قطر طبيعة واستعداد والقوة الطبيعية أنفع من القوة المتكلفة ، والامة المصرية مستعدة لمغالبة كل أمة من أمم الارض ، بقوتي الثروة والعلم ، وليست مستعدة لمقاومة دولة كبيرة بالحرب ، ولاسيما في هذا العصر ، فليكن اعتمادها على ما هو قريب من استعدادها ، وعناية الله كافلة لها نيل مرادها ،

تأريخ التجنيد العثماني (*

كان قانون أخذ العسكر موضوع جلسة يوم السبت في مجلس الامة كما يراه المطالع في باب هذه المذكرات من هذا العدد . وقد صدّره قومسيون العسكرية في المجلس بمقدمة تأريخية باحثة عن طرق التجنيد في الدولة منذ تأسست الى يومنا هذا فأحببنا اقتطاف المهم منها لمحبي التأريخ

« اذا استثنينا الرومان قلّ ان نصادف في تأريخ عسكرية الامم اشارة لوجود اجناد دائمية منتظمة . وفي القرون الوسطى كان هذا الامتياز للعثمانيين وبعد قرون من ذلك أسس شارل السابع ملك فرنسا أجنادا دائمية

« كانت أجناد العثمانية الى سنة ٧٣٠ هـ . مؤلفة من المتطوعين وعبارة عن جيش موقت يقبل فيه كل راغب من الشبان . لم يكن لباس الجند واحدا بل كان

---

*) نقلناها من جريدة الحضارة التي تطبع بالآستانة